مساهمة التعليم الحر فى النهضة القومية

للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

مراقب التعليم الحر المساعد

بدأت حركة التعليم الحر فى مصر منذ أكثر من نصف قرن . وكان الفضل فى ظهورها لما غلب على السياسة التعليمية الرسمية فى ذلك العهد من جمود وميل للتضييق والتقييد فى هذه الناحية . وأهل الكثيرين يذكرون كيف كانت مدارس الحكومة إلى أوائل القرن الحاضر لا تعدو مدرسة ابتدائية واحدة فى عاصمة كل مديرية ومحافظة و بضعة مدارس ابتدائية بالقاهرة وثلاثة مدارس قانونية زيدت إلى أربع فى أوائل هذا القرن وعدد قليل من المدارس الفنية والعالية . وكانت جميعها محدودة العدد محكمة التقييد بحيث لا يظفر بمكان فيها إلا قلة من أبناء البلاد القادرين على دفع المصروفات واحتمال نفقات إنتقالهم من بلادهم ولم يكن هذا النظام بالضرورة نظاما قوميا للتعليم ولكنه نظام حكومى أريد به إعداد من تحتاجهم أداة الحكم من موظفين كتابيين وفنيين .

ولما كان هذا النظام بطبيعته هذه لا مكان فيه للموهوبين من الفقراء ولا لأبناء الطبقة الوسطى الذين لا يقوون على تكاليفه وخاصة متى كانت بلادهم بعيدة عن مقر المدرسة فقد نشأ عن ذلك إحساس كثيرين من قادة الرأى بضرورة قيام الشعب من جانبه بجهد إيجابى لسد هذا النقص .

لهذا تكونت الجمعيات الخيرية الكبرى فى العقد الأخير من القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر وجعلت أهم أغراضها التعليم لأنها رأت فيه أفضل وجوه البر بالفقراء فهو ينهض بهم ويعدهم لحياة خير مما يحيون وهو يتيح الفرص لاظهار المواهب المحبوءة والكفايات المحجوبة فتنفع البلاد بها وتفيد من مزاياها .

فكونت الجمعية الخيرية الاسلامية ويكفى للدلالة على عظم المهمة التى أسست لها أن نشير إلى أن من مؤسسيها الأستاذ المغفور له الشيخ محمد عبده والزعيم العظيم خالد الذكر المرحوم سعد زغلول باشا والمصلح الاجتماعى الكبير المرحوم قاسم أمين بك والزعيم الكبير المغفور له محمد فريد بك والمرحوم أحمد فتحى زغلول باشا وغيرهم من أعلام النهضة الحديثة وقد بدئ بانشاء مدارس مجانية فى أهم بلاد القطر ثم زادت فى عدد مدارسها بكثير من المدن المحرومة من المدارس .

كذلك تكونت جمعية العروة الوثقى وقصرت نشاطها على مدينة الاسكندرية حيث أنشأت فى كل أنحائها مدارس عمرت بالفقراء وأبناء الطبقة الوسطى .

وتكونت جمعية المساعى المشكورة وحصرت نشاطها فى مديرية المنوفية حيث أنشأت مدرسة بكل مركز من مراكزها .

وتكونت جمعية التوفيق القبطية والجمعية الخيرية القبطية كما نشطت بطركخانة الأقباط الأرثوذكس فأنشأت مدارس كثيرة بمختلف أنحاء القطر واهتمت إدارات الأوقاف الخيرية المختلفة فأنشأت المدارس وأنفقت عليها من ريع تلك الأوقاف .

وحركت دعوة الخير كثيرا من الأغنياء للاهتمام بالتعليم فمنهم من تبرع للجمعيات الخيرية السالفة الذكر بما يقويها ويزيد نشاطها فى تلك المهمة كالمغفور له أحمد المنشاوى باشا . ومنهم من أسس فى بلاده وأوقف عليها ما يساعدها على أداء واجبها كالمرحوم مصطفى الشوربجى بك الذى أسس مدرستين بكوم حماده وكفر الزيات ، وكشك بك الذى أسس مدرسة بزفتى ، والألفى بك الذى أسس مدرسة بمنيا القمح ، وزعزوع بك الذى أسس مدرسة ببنى سويف وغيرهم ممن تقربوا لله والوطن بانشاء المدارس و إفساح السبيل لتعليم أبناء الشعب بها .

وقد نجحت هذه المدارس فى مهمتها أكبر نجاح وازداد عدد المتعلمين ازديادا كبيرا وكتب لبعضها فى كثير من الأحوال أن تبز مدارس الحكومة فى الامتحانات العامة وظهر منها كثير من الفقراء المتازى المواهب وكان نجاحها حجة قوية استغلها الدعاة السياسيون فى التدليل على مقدرة هذه الأمة على الاضطلاع بأعبائها الخاصة والاستقلال بادارة شؤونها وقد تشجع كثير من الأفراد بهذا النجاح و بما بدا من الأمة من تعطش للتعلم ورغبة فى الاستزادة من المدارس فأنشأوا المدارس كوسيلة من وسائل الارتزاق الشريف و باب من أبواب الخدمة الوطنية العامة وكتب لكثير منهم التوفيق فى الغرضين .

ولم يقتصر إنشاء المدارس على الجمعيات وذوى الخير من الأغنياء وطلاب الارتزاق عن طريق التعليم . بل لقد فكر بعض رجال السياسة فى إنشاء المدارس لبث المبادئ الوطنية ككلية مصطفى كامل التى أنشأها المغفور له مصطفى كامل باشا وكالمدرسة الإعدادية التى أنشأها المغفور له عبد العزيز جاويش بك .

وعلى الرغم من أن الحكومة بعد أن صارت مقاليد أمورها إلى أيدى أبناء البلاد قد نشطت فى ناحية التعليم نشاطا عظيما فتوسعت فى إنشاء المدارس المختلفة الأنواع بشتى أنحاء القطر وعلى الرغم من أنها أدخلت نظام المجانية وهيأت السبيل للامتازين من أبناء الفقراء فى التعليم

بمدارسها . على الرغم من هذا كله لم يفتر نشاط المدارس الحرة ولم يقل عددها بل هو فى ازدياد عاما بعد عام ولا تزال إلى اليوم تضطلع بالعبء الأكبر فى تعليم أبناء هذه البلاد .

ويكفى لتبين ما وصل اليه التعليم الحر الآن أن نذكر أن عدد المدارس الحرة للبنين يبلغ نحو ثلثمائة مدرسة وعدد المدارس الحرة للبنات نحو مائة مدرسة وخمسة ويتعلم بهذه المدارس ما يزيد على ستين ألفا من البنين وعشرين ألفا من البنات وهـذا العدد يقرب من ضعف من يتعلمون بمدارس الحكومة الابتدائية والثانوية . ولم ندخل فى حسابنا هذا المدارس الأجنبية الكثيرة التى تعلم عددا غير قليل من المصريين .

ومن هنـا كان اهتمام الحكومة الشعبية بأمر هـذا التعليم وتنويهها بأهميته فى خطاب العرش فى الدورة البرلمانية الحالية .

وهنا نعرض لفكرة جاء لها ذكر فى إحدى الدورات البرلمانية ، فقد تساءل بعضهم لماذا لا تخفف الحكومة من كثير من أعبائها فى التعليم الثانوى وتكل أمره للتعليم الحر كما هو الحال فى كثير من الأمم الراقية وتتفرغ هى لمهمتها التعليمية الكبرى وهى تعميم التعليم الأولى ونشر التعليم الفنى والعالى .

ولكنا نقرر مع عظيم تقديرنا لجهود المدارس الحرة أن الوقت لم يحن بعد لكى تخطو الحكومة مثل هذه الخطوة وأن مستوى كثير من المدارس الحرة لم يصل بعد إلى المستوى الذى يسمح بأن يعهد لها وحدها بهذه المهمة .

إن مبانى كثيرة من هذه المدارس لا يزال غير ملائم لحاجات التعليم . ومعدات الدراسة فى كثير منها لا تزال بحاجة إلى الاستكمال وهيئة التدريس فيهـا لا تزال بحاجة إلى التقوية . والحالة المـالية فى كثير منها لا تزال بحاجة إلى التدعيم والتوطيد .

وتسعى الوزارة دائبة فى مساعدة المدارس الحرة من هذه النواحى جميعا .

فهى تمدها بمساعدات مادية وتستعين بها على القيام بالإصلاحات الضرورية واستكمال وسائل التعليم الأساسية .

وهى تعمل على إكثار العناصر الفنية فى هيئة التدريس بها وتشجعها على ذلك بدفع قسط كبير من مرتبات هؤلاء المدرسين من جانبها و بفضل ذلك أصبح نحو ستين فى المـائة من مدرسيها من الفنيين .

وهى تضع الأنظمة بتحديد العلاقات بين هؤلاء المدرسين وأصحاب المدارس حتى تستقر أحوالهم وتطمئن نفوسهم و بذلك يتحقق قيامهم بواجبهم على أفضل وجه .

وهى تراقب المدارس وتصرفاتها وتحاسبها على كل انحراف عن سبيل التربية الصحيحة.

ويوالى مفتشوها زيارة هذه المدارس وتتبع أحوالها ويقدمون لها الإرشادات الفنية والادارية الكاملة بحسن سيرها وانتظام شؤونها .

وهى تشرف على امتحاناتها وتتولى بنفسها امتحانات النقل فى مدارسها الثانوية وبذلك تطمئن إلى وضع كل طالب فى مكانه الصحيح .

وبالإجمال لاتألو الوزارة جهدا فى رعاية شؤون هذه المدارس والعمل على رفع مستواها. ووزير المعارف الحالى من أشد العاملين على حركة التعليم الحر وأكثرهم اهتماما بأمرها ؛ وقد كان له الفضل فى مضاعفة اعتماد التعليم الحر فى عهده السابق بوزارة المعارف كما كان له الفضل فى تقرير اعتماد اضافى كبير لهذا التعليم فى هذه السنة .

بقى أن نعلم ماذا ينتظر لهذا التعليم من التطور فى المستقبل وإلى أى اتجاه نرجو أن يتجه؟

إن الذى نتوقعه أن رقابة الحكومة اليقظة ورعايتها الأبوية لهذا التعليم سيكون من شأنهما أن تصل هذه المدارس إلى منزلة عالية من العلاج لأداء مهمتها، وسيكون أهم مظاهر ذلك أن يكون كل مدرسيها من الفنيين الأكفاء .

ونتوقع أن تتحسن مبانى تلك المعاهد وتصير مستكملة لكل معدات الدراسة الحديثة من معامل ومكاتب ومتاحف وملاعب .

ونتوقع تحت ضغط هذه الرقابة القوية أن تختفى المدارس الهزيلة وأن تتحول الجهود الفردية إلى جهود جماعية تحركها روح الاصلاح والخدمة العامة لا روح الاتجار والاستغلال .

وما يدرينا لعلها إذ ذاك تتجه اتجاهات جديدة وفاء بحاجات البلاد وتحقيقا لأمانيها .

مايدرينا ، لعل القائمين بأمر هذه المدارس يمتد نشاطهم إلى نواح جديدة غير التعليم الابتدائى والثانوى. لعل منهم من يفكر فى أمر من يشتغلون بالأعمال والمهن ممن أتموا الدراسة الأولية وحاجتهم إلى تثقيف تكميلى يزيد بصرهم بأعمالهم ويوسع أفقهم فى الحياة العامة فينشئ لهم معاهد لهذه الدراسات التكميلية .

ولعل منهم من يستجيب لحاجة كثير من الشباب المثقف للاستزادة من العلم والثقافة فيقوم لهم بكثير مما تقوم به مدارس المراسلات والأقسام المسائية التى تزودهم بالدراسات الخاصة وتعدهم للدرجات الجامعية .

ولعل منهم من يتسع وقته وجهده للمساهمة فى الخدمة العامة بتنوير الشعب بالمحاضرات العامة كما تفعل بعض المعاهد الأجنبية .

إن ذلك كله فى حيز الاحتمال ولا سيما متى صار أمر هذه المدارس الحرة كلها إلى جماعات لا تبغى من وراء مهمتها نفعا خاصا ولكنها تسعى لإداء واجب وطنى وخدمة عامة .

بلى ما يدرينا ، لعل هذه المدارس تكون قريبا حاملة لواء الاصلاح والتجديد حتى فى التعليم الابتدائى والثانوى .

إن لها من الحرية ومرونة الأنظمة واستقرار هيئة التدريس بها وسرعة استجابتها لحاجات البلاد ما يسمح لها متى توافر لديها الأكفاء من المدرسين أن تسبق الحكومة إلى اقتباس بعض الأنظمة الحديثة وتجربة بعض الطرق الجديدة . ولقد حدث فى الماضى من ذلك ما يحملنا على توقع حدوثه فى المستقبل ، فالجمعية الخيرية الاسلامية سبقت الحكومة بعشرات السنين فى إدخال مواد التربيـة الوطنيـة ومبادئ العلوم والصحة والأشغال اليدوية فى مناهجها .

وبعد ، فاعل القارئ الكريم يرى معى كيف صار هذا النبت الصغير الذى بذرت بذوره فى أواخر القرن الماضى دوحة باسقة وراء الظلال ، وكيف أصبح هذا البناء المتواضع صرحا شامخا ممتد الأطراف ، وكيف آل هذا الجهد الشعبى المتواضع إلى جزء أساسى من نظامنا القومى للتعليم .

وسيذكر مؤرخو النهضة المصرية الحديثة أن التعليم الحر كان من أقوى الأركان التى قامت عليها تلك النهضة بما أتاح للشعب من اضطلاع بعبء جسيم من أعباء الاصلاح الاجتماعى ، وبما مكن لأبناء الشعب المحرومين من ورود حياض العلم والانتهال من مائه العذب ، وبما ذلل من عقبات كانت قائمة فى سبيل نشر العلم وتعميمه بين كل طبقات الأمة .

محمد عبد الواحد خلاف